

الجانب الصوفي

في الفلسفة الإسلامية

للدكتور إبراهيم يومي مذكور

مدرس الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب

— ع —

لم يقف تصوف الفارابي عند المدرسة الفلسفية ، بل تمدها إلى مدارس أخرى صوفية في الاسلام . وعلى رأس هذه المدارس يجب أن نضع مدرسة الأشراقين التي عاشت في بلاد الفرس إلى القرن السابع عشر . ومؤسس هذه المدرسة هو السهروردي أو الشيخ القنول المتوفى سنة ١١٩١ م . وكان ذا اطلاع واسع وخبرة تامة بالفروق الفلسفية التي تأثر بها عامة وبرجال مدرسة الاسكندرية وفلاسفة الاسلام السابقين بوجه خاص . ويظهر أن صفة اطلاعه ولدت فيه رغبة التوفيق بين الفلسفات والفلاسفة المختلفين^(١) . فالفلاسفة عنده رجال أسرة واحدة وفروع شجرة مباركة تعد الإنسانية بما فيها من ثمار وخيرات . أميدوقل وفيثاغورس وأفلاطون وأرسطوطاليس وبوذا وهرمس ومنزك وماني ، وإن انتسبوا إلى شعوب مختلفة ، هم أبناء الإنسانية أولاً وبالذات ورسل السلام والاصلاح^(٢) . وعلى الجلة زهاد الهند وفلاسفة الاغريق وحكام العراق يسمون وراء غايه واحدة ، ويمملون على نفس نظرية ثابتة ، وينطوون تحت لواء فلسفه واحدة ، هي الفلسفه الأشراقية . ومبدأ هذه الفلسفه وأساسها الأول أن الله نور الأنوار ومصدر جميع الكائنات . فمن نوره خرجت أنوار أخرى هي عماد العالم المادي والروحي . والمقول المفارقة ليست إلا وحدات من هذه الأنوار تحرك الأفلاك وتشرف على نظامها^(٣) . فالفلسفه الأشراقية تعتمد إذن على نظرية القول العشرة الفارابية مختلطة بنصائر مزدكية ومانوية

وإذا كان العالم في جلته قد برز من أشراق الله وفيضه ، فالتنفس

(١) Van den Bergh, Subrawardi, dans Encyc. de l. Islam

(٢) السهروردي ، حكمة الأشراق ، ص ٣٧١

(٣) السهروردي ، هياكل النور ، ص ٢٨ — ٢٩ و ٣٢

تصل كذلك إلى بهجتها بواسطة الفيض والأشراق . فإذا ما تجردنا عن المذات الجسمية تجلى علينا نور الله لا ينقطع مدده عنا . وهذا النور صادر عن كائن منزلته منا كمنزلة الأب والسيد الأعظم للنوع الانساني ؛ وهو الواهب لجميع الصور ومصدر النفوس على اختلافها . ويسمى الروح القدس أو على لغة الفلاسفة العقل الفعال^(١) . ومتى ارتبطنا به أدركنا المعلومات المختلفة واتصت أرواحنا بالنفوس السماوية التي تعيننا على كشف الغيب في حال اليقظة والنوم . وليس للتصوف من غايه إلا هذا الارتباط ؛ والأشراقيون يسمون إليه ما استطاعوا وكثيراً ما يتممون به . أما الأنبياء فهم في اتصال دائم وسعادة مستمرة . يقول السهروردي : « إن النفوس الناطقة من جوهر الملكوت ، وإنما يشغلها عن عالمها هذا القوى البدنية ومشاغلا ، فإذا قويت النفس بالفضائل الروحية وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر تخلص أحياناً إلى عالم القدس ، وتتصل بأبيها المقدس وتتلقى منه المصارف ، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها ويلوازم حركاتها ، وتتلقى منها المغييات في نومها ويقظتها كمرآة تنتقش بمقابله ذى نفس »^(٢)

فالفلسفه الاشراقية التي دعا إليها السهروردي متأثرة في بدنها ونهايتها بتعاليم الفارابي ، ذلك لأنها مؤسسة على نظرية الفيض الفارابية وزراعة إلى العالم المادي ؛ غير أن هذه الفلسفه صوفية كلها أو التصوف هو كل شيء فيها ، في حين أنه لدى الفارابي ليس إلا قطعة من مذهب متنوع الأجزاء . هذا إلى أن الأشراق لا يقنع بالاتصال بالعقل الفعال وحده ، بل يطمع في الاتحاد بالله مباشرة والامتزاج بنور الأنوار^(٣) ؛ فكان السهروردي حين دعى للاختيار بين تصوف الحلاج وتصوف الفارابي رأى أن يجمع بينهما ، وأن يقول بالاتصال والاتحاد معاً ؛ وهذه زعة توفيق أخرى تتفق مع روحه العامة هذا التصوف العقلي المبني على فكرة الفيض يبدو كذلك عند صوفي وفيلسوف آخر من رجال القرن الثالث عشر . ونعني

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٨

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٤ — ٤٥

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤٥ — ٤٦ — حكمة الاشراق —

هذه النظرية ، كما نرى ، تكرار حرفي لما قاله الفارابي وابن سينا ، وصاحبها نفسه يصرح بأنه أرسطى كسابقه من فلاسفة الاسلام وإن كان يتقدم تقدماً مهماً^(١) . وقد بنى تصوفاً عقلياً على أساس فلسفي فهو صوفي على طريقة الفلاسفة^(٢) ؛ وفيما يتعلق بمشكلة الجذب والالهام يخيل إلينا أنه أميل إلى الفلاسفة منه إلى الصوفية ؛ فهو يرفض الحلول والاتحاد اللذين ذهب إليهما العلاج ويقصر السعادة على مجرد اتصالنا بالعقل الفعال وارتباطنا به ارتباطاً روحياً معنوياً^(٣) .

فتصوف السهروردي وابن سبعين مؤسس على دعائم فلسفية . وفي رأيهما أن الكائن الممكن يستلزم كائناً آخر واجب الوجود بذاته لينحججه الوجود ويفيض عليه بالخلق والابداع . وهذا الكائن الواجب الوجود هو الله جل شأنه ؛ فهو موجود أزلاً بنفسه ودون حاجة إلى أي موجد آخر وإلا امتدت السلسلة إلى ما لا نهاية . والكائنات الأخرى جميعها مظاهر لمله وإرادته ، ومنه تستمد الحياة والوجود ؛ فوجودها إذن عرضي وبالتبع . وعلى هذا ليس تحت إلا كائن واحد موجود حقيقة وضرورة ، بل هو الوجود كله ، والكائنات الأخرى لا تسمى موجودات إلا بضرب من التوسيع والمجاز . هذه هي نظرية وحدة الوجود التي اعتنقها جماعة من الصوفية بعد انحطاط الدراسات الفلسفية في الاسلام . وقد تكونت في أوائل القرن الثاني عشر الميلادي ، وانتشرت بعد ذلك في بلاد الأندلس والشرق . ومن أكبر أنصارها عبي الدين بن العربي المتوفى سنة ١٢٤٠ ميلادية ، وجلال الدين الرومي المتوفى سنة ١٢٧٣ ، وشعراء آخرون من متصوفة الفرس^(٤) . ويصمد مذهب الوحدة هذا كما لاحظ ابن تيمية إلى ابن سينا ، أو كما نلاحظ نحن إلى الفارابي^(٥) . وإذا كان الله هو الوجود الحق وجب أن تتلاشى فيه سائر الموجودات الأخرى . وهنا يختلط التصوف بالفلسفة اختلاطاً كبيراً . فكان مذهب المشائين من العرب لما حوِّدوا في شخص

به ابن سبعين الفكر النقادة الذي لم يُدرس بعد دراسة كافية ، ولا ثقة به على الرغم مما في آرائه من حصافة وفي أفكاره من عمق ودقة . وعمل أكبر مصدر نتمتع عليه في تعرف نظرياته هو المراسلات التي دارت بينه وبين فردريك الثاني ملك ألمانيا وأمبراطورها المتوفى سنة ١٢٥٠ . وقد بقيت هذه المراسلات مجهولة إلى أن اهتدى إليها المستشرق الإيطالي أسري سنة ١٨٥٣ في مخطوطة من مخطوطات أ كسفورد تحت عنوان : الرسائل الصقلية^(١) . وبمده بنحو عشرين سنة قام بتحليلها في الصحيفة الآسيوية الفرنسية المنشورة في المشرق المنشورة شهرن^(٢) . وقد وقفنا بأنفسنا على هذه المخطوطة فوجدناها مملوءة بالعلامات والملاحظات الدقيقة ، وما أجدها بأن تطبع وتنتشر . وكنا نعلم ما كان عليه فردريك الثاني من رغبة في العلم وحسب للأدب والفلسفة العربية . لهذا وجه إلى ابن سبعين عالم صقلي وفيلسوفها في ذلك العهد أربعة أسئلة متعلقة بقديم العالم ، والقولات المشر وما وراء الطبيعة في غايته وبادئه ، وطبيعة النفس . وهذه الأسئلة تلخص تماماً المشاكل الهامة التي كانت تشغل المفكرين عامة وتلاميذ أرسطو على الخصوص في ذلك العصر . وقد أجاب عليها ابن سبعين إجابة موسعة مستفيضة بحيث ضمنها كل مذهبه وآرائه الخاصة ؛ وفي مقدور من يرجع إليها معتمداً على بعض المصادر الأخرى أن يكون فكرة كاملة عن نظرياته الصوفية والفلسفية . ولست هنا بصدد هذا الدرس المطول ؛ وسنكتفي بأن نشير إلى ما يتصل منه بموضوعنا . قاله في رأي ابن سبعين أصل القول بالنسبة في الكون ، صدرت عنه بمحض الفيض والأنام ، والعقل الفعال وهو أحدها يدير شؤون الأرض ويمد الكائنات بصورها النباتية ، فهو مصدر النفوس البشرية على الإطلاق ؛ وإذا كانت النفوس صادرة عنه فهي مبالغة دائماً إلى الاتصال به ؛ ولا يحول دونها وذلك إلا أدران الجسم وشهوته . فإذا ما تفرغ الإنسان للدراسة والنظر فاز بالمعرفة الكاملة والحقيقة المجردة ، وسما إلى درجة العقل الفعال^(٣) .

Ibid., p p. 129 et suiv.

(١)

Mehren, Journal asiatique 145.

(٢)

Ibid., p. 390.

(٣)

Nicholson, The Legacy of Islam, p p. 223 et suiv.

(٤)

Massignou, Recueil, p. 187.

(٥)

Amari, Journal asiatique, 1853, 5^e série, t. I, Fév-mars. (١)

Mehren, Ibn Sab'in, Correspondance avec l'empereur (٢)

Frédéric II dans Journal asiatique, t. XIV (1879).

Ibid., p p. 459 — 360, 423 — Massignou, Recueil, p. (٣)
133.